صناعة الرجال
الصناعة المفقودة

إعداد

عارف أنور نور محمد

مصدر هذه المادة:







بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقـــدمة

إن المسلمين اليوم بحاجة إلى صياغة وصناعة جديدة، لكثير ممن ينتسب إلى هذه الجماعة المسلمة، فليس الانتماء بالبطاقة أو الإقليم، يكفي لهذه الأمة أن تبني مجداً أضاعته أحقاباً من السنين، وليس لها كذلك أن تعود إلى سيادتها إلا أذا صنعت رجالا يستطيعون إعادة البناء، ورد الأكوام الهائلة من التخلف إلى الوراء، وليس معنى طلب هذه الصناعة أننا نفتقد هؤلاء الرجال بالكلية، ولكننا نقول : ربمـــا كانوا هناك!! ولكن هم بحاجة إلى صياغة من جديد، وإظهـــارهم في قوالب غير القوالب التي ألفوها، في رتابة مملة، يعيشـــون فيهـــا أجواء تجعل المسلم يفكر جيداً وملياً بتغييره إلى الأفضل.

إن الشعور في الفرد المسلم لتغيير العالم –ابتداء مما حوله–، من ظلم الظالمين، وجور الجائرين، وطغيان الطغاة، سيكون قائداً له أن يعيش يوماً ما بطولة، يستطيع بها إعادة الحقوق إلى أهلها، وإعـــادة المياه إلى مجاريها.

إن الشعور بالقزيمة(١) التي يعيشها كثير من أبناء هذه الأمـــة، لينخر في الجسد الإسلامي نخرا عجيباً، لا يستطيع معه إلا أن يقلب يديه ظهراً لبطن، متأسفاً لماض فقده، ولمجد أضاعه، ولكنه لو نظـــر إلى الأفق، وحلق في الأجواء بعيداً عن هذه الروح الانهزامية، لعلـــم يقينا أننا قادرون على إعادة كل ما ذهب، واسترجاع كل حـــق،

(١) المقصود به من القزم وهو الدناءة كما في المنجد، وأقصد به : الشعور بالدون.

ولكن علينا أن نجعل أمامنا، ونصب أعيننا قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾ [الرعد:١١].

كثيراً ما يحلق الإنسان بفكره في السماء، فيجد أمامه بحراً متلاطماً من الغيوم، لا يكاد أو لا يستطيع أن يصل إلى ساحل هذه الغياهب، ولا يقدر على فن السباحة، حتى يصل إلى شاطئ الأمان، وذلك لأنه قد يعيش انهزامية نفسية، ويرتضي بالدون بدلا من العلو ويعيش القزمية بدلا من التفاخر والكبرياء، أعني في إظهار عزة المسلم. إنها المشكلة التي سنحاول – إن شاء الله تعالى – أن نعالجها، فالعلاج سهل، والأمر ليس بالصعب، ولكنه يسير على من يسره الله عليه فأقول:

صناعة الرجال: كلمة عجيبة، وصياغة جديدة، ولأول مرة قد تخطر ببال إنسان. إن الإنسان يصنع! لا بل الرجال تصنع!! ولا غرابة في ذلك، ولست مستهيناً بك أيها القارئ، حيث إني أكتب إليك مقالة، أريد منك أن تصنع من نفسك رجلاً، فالناس كثيرون، ولكن الرجال قليلون. إن كاتب هذه السطور، لم يأت ببدعة جديدة في هذه التسمية، فإنها مذكورة في القرآن الكريم. قلب صفحات سورة طه، ستجد رب العزة والجلال، يقول واصفا خلق موسى –عليه السلام-: ﴿**وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي**﴾[طه:٣٩] ثم استرسل في القراءة حتى تصل إلى قوله تعالى: ﴿**وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي**﴾[طه:٤١] قال ابن كثير [(١)] : و(لتصنع) قال أبو عمران الجوني: تربى بعين الله، وقال قتادة: تغذى على عيني

(١) تفسير ابن كثير ٤/٥٠٥ دار الفكر.

وقوله: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ أي: اصطفيتك واجتبيتك رسولا لنفسي، أي كما أريد وأشاء.

إذن، فالله –سبحانه وتعالى– اختار رجلا هو موسى – عليه السلام– من بين سائر الرجال في ذلك الزمان، واصطفاه، واجتباه رسولاً لنفسه، كما يريد سبحانه وتعالى ويشاء. فهذا معنى الصناعة التي قال عنها: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾والله – عز وجل– يقول : ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[الأنعام:١٢٤].

إذن فهذه الصياغة والصناعة التي جعلها الله – عز وجل– على مرأى عينه، هي التي جعلت موسى ينزع العرش من تحت فرعون، وهي الشخصية البطولية المؤيدة من الله – عز وجل– التي أظهرت الحق حقاً وأزهقت الباطل وطرحته جانباً، وهي التي خاضت معارك مع رأس الكفر والطغيان في وقته، حتى أهلكه الله.

أيها القارئ الكريم: لعلك تسأل نفسك، ترى ما هذه الصفات التي تجعل من الإنسان رجلا؟ ومن المسلم بطلا في الحق يستطيع أن يجعل لقبه رجلاً، بدلاً من ألقاب أخرى هي دون ذلك؟

إن جملة من الصفات المذكورة والمنصوصة عندنا شرعاً تجعل الإنسان بالفعل رجلاً، بل ويأتي بهم النص في الكتاب والسنة بهذا الوصف واللقب، كما سترى إن شاء الله تعالى.

الصفات الأساسية
لصناعة الرجال

١-العبودية المطلقة لله – عز وجل- :

الرجل حقاً من دان وخضع لله عز وجل، انقياداً واستسلاماً، ويكفيه فخراً أن يكون عبدا لله. ألا ترى أن الله – عز وجل- وصف نبيه ﷺ بالعبودية في أعلى المقامات، وعندما رفع إلى أعلى الدرجات حتى بلغ قاب قوسين أو أدنى، فقال تعالى: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ**﴾[الإسراء:١] ولذلك أن العبودية هي الانقياد لأوامر الله عز وجل، ولو في أبسط الأمور وأقلها، نجد أن الله سبحانه وتعالى، قد وصف من أذعن لهذه العبودية، بأقل العبادة وأصغرها، وهي الطهارة بأنهم رجال، فقد قال تعالى: ﴿**فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ**﴾[التوبة:١٠٨] فسمى أهل قباء بأنهم رجال، وذلك لأنهم خصلة من الخصال التي يحبها الله عز وجل، كما أنه وصف من قام بأعظم أركان هذا الدين، وهي الصلاة والزكاة، وصفهم بالرجولة، فقال:

﴿**رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ...**﴾[النور:٣٧].

وانتهاء بأعظم صفات العبودية لله، والانقياد والاستسلام له، وبذل الغالي والنفيس لإعلاء كلمته سبحانه وتعالى، فوصف هؤلاء ربهم بقوله: ﴿**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ**

عَلَيْهِ﴾[الأحزاب:٢٣] فهم من جملة المؤمنين !! ولكن الله سبحانه وتعالى خصهم بوصف الرجولة من بين سائر المؤمنين ألا يدل هذا على الفارق بين المؤمن العادي، والمؤمن الموصوف بالرجولة؟ وفي كل خير إن شاء الله تعالى.

٢-الصدق:

هذه الصفة الثانية، فقد جاء النص صريحاً، أن الصادقين رجال كما تقدم في قوله تعالى: ﴿**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ**﴾فالصدق شعارهم، والوفاء بالعهد دثارهم. ولهذا أمر الله عز وجل عبادة المؤمنين أن يكونوا مع الصادقين فقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾[التوبة:١١٩] وامتدحهم الله عز وجل بقوله: ﴿**وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ**﴾[الأحزاب:٣٥].

ويحث النبي ﷺ أمته أن تتبع الصدق وطريقه، وتتجنب الكذب وخطورته، فقال ﷺ : «**عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا..**»[رواه مسلم عن ابن مسعود].

بل يكفي فخراً أنه يوصف بالبطولة والرجولة، بل والشهادة وإن مات على فراشه، المهم أن يكون صادقاً في طلبه، فقال ﷺ: «**من سأل الله تعالى الشهادة بصدق، بلغه الله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه**»[رواه مسلم عن سهل بن حنيف].

فهو لا يموت جبانا خواراً !! إنما يموت شهيداً إن شاء الله تعالى

– بنيته الصادقة، وعزيمته القوية، ووفائه بعهده مع الله تعالى.

ومن أعظم مواقف الصدق، أن يكون صادقا مع الله، ثم مع عباده من خلقه، والرجل هو من يصدق مع نفسه أولا وقبل كل شيء، فلا يرتضى بالدنية ، ولا يقبل الذل، ويأبى الضيم، فيعيش صادقا مع نفسه، متأملا في تغيير ما حواليه بتغيير في نفسه أولاً: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾[الرعد:١١].

٣–الجرأة بالحق:

هذه صفة من صفات الرجولة، حيث يقف المؤمن، رجلا قوياً، جريئا في الحق، متأسياً بمن سبقه من الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا**﴾[الأحزاب:٢١] فهذا رسول الله ﷺ يقف أمام الكافرين، ويصدع بالحق، لا يخشى في الله لومة لائم، لا يبالي بمن حواليه من جحافل الكفر ورؤوس الكافرين، فيلقي خطابه المعروف والمشهور في التاريخ : «**أرأيتم لو أني أخبرتكم أن خيلاً**... » القصة، فقال إليه فرعون هذه الأمة، أبو لهب، وقال : تباً لك يا محمد سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله سورة كاملة تذم من وقف أمام الحق، وأراد نصرة الباطل والضلال فقال تعالى: ﴿**تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَب وَتَبَّ**﴾[المسد:١].

إن الجرأة بالحق لتكمن جلياً، في فريضة من فرائض هذا الدين، ألا وهي فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، التي قال الله عنها، واصفا هذه الأمة بالخيرية: ﴿**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ**﴾[آل عمران:١١٠] وذم

بني إسرائيل، ولعنهم، عندما تركوا هذا الفريضة، فقـال: ﴿**لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ**﴾[المائدة:٧٨-٧٩].

ولذلك أيها القارئ الكريم، فإنك تعلم أن من صفات الرجـل أن يأبى الظلم والمنكرات، وأن لا يقبل الزيغ والضلال والانحراف. ولذلك جاءت النصوص الشرعية بالصدع بالحق في هذا الجانب، وإيقاظ الرجولة الكامنة في النفس، حتى يغير على محارم الله إذا انتهكت، وعلى حدود الله إذا عطلت، فاستمع أيها الرجل المؤمن إلى خطاب نبيك ﷺ وهو يقول : «**من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**» [رواه مسلم عن أبي سعيد].

ففي هذا الحديث إيقاظ الضمائر الحية، التي تأبي الفواحش والمنكرات، ولا تقبل أن تعيش في مجتمع يسوده الزيغ والضلال والانحراف، ولذلك فإن من دواعي الرجولة، أن تستنهض الهمم في تغيير المنكرات، على المراتب الشرعية، التي ذكرها النبي ﷺ، فمنهم من هم أهل التغيير باليد، كالحكام والسلاطين، وغيرهم من القضاة وأصحاب الحقوق، كالآباء والمربين والمدرسين، ومنهم من هم أصحاب الكلمة الطيبة، سواء كانت على المنابر والمحاريب، أو المحافل والمنتديات، وساء كانت باللسان أو الأقلام.

وإياك إياك أيها الرجل المؤمن، أن تقبل الدرجة الأخيرة، وتعيش دائما في الهزامية، قائلاً : لا ينفع هذه الأيام إلا النكير في

القلب فقط ! فإن الوقت باق والناس بخير، والكلمة الطيبة صدقة إن شاء الله تعالى، وحذار حذار من ترك هذه الفريضة العظيمة، فإنها نقص في رجولتك، وقدح في دينك، وخلل في اعتقادك، يستحق فاعل ذلك العقوبة من الله تعالى، قال ﷺ : «**والذي نفسي بيده، لتأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده، ثم لتدعونه فلا يستجاب لكم**»[حديث حسن كما في صحيح الجامع].

***نماذج بطولية من جرأة الأنبياء وأتباعهم بالحق:**

إن الناظر في الأحقاب الماضية، ليجد أن الله — سبحانه وتعالى— سخر عبادا من عنده، قاموا بهذا الدين، سواء كانوا من هذه الأمة، أو من أمم قبلها، ولذلك نلمح إلى شيء من هذه المواقف، وهي معروفة لدى الكثير، ولكن من باب الإشارة.

الموقف الأول: موقف إبراهيم – عليه السلام – من قومه عبدة الأصنام إلا كبيرهم، اقرأ قصته بالتفصيل في سورة الأنبياء الآيات (٥١-٧٣).

الموقف الثاني:كذلك موقف إبراهيم الجريء في الحق مع النمرود. والذي كان يدعي أنه يحيي ويميت، فطلب منه إبراهيم أن يأتي بالشمس من المغرب، فبهت الذي كفر. اقرأ تفاصيل هذه القصة في سورة البقرة آية (٢٥٨).

الموقف الثالث:موقف غلام الأخدود، ذلك الغلام الذي أبهر الملك ومن كان في عصره، بجرأته، وبطولته، ورجولته الحقيقية، عندما قدم نفسه رخيصة لهذا الدين ولهذه العقيدة.

وهناك المواقف الكثيرة التي لا يسع المقام لتفصيلها في هذه العجالة المتواضعة، مما يؤكد أن من صفات الرجولة البطولية والجرأة بالحق.

٤-الشفافية الروحية والصلة الدائمة بالله والمراقبة الحقيقية:

الرجل من يزن الأمور، يعيش لآخرته، كما يعيش لدنياه، بل الآخرة خير وأبقى : ﴿**وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا**﴾[القصص:٧٧]، ولذلك فإن وصف الله من يراقب الله ويخشى الله بأنهم رجال. قال: تعالى: ﴿**رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ**﴾[النور:٣٧] فمن صفاتهم أنهم يعيشون للآخرة، ويخافون ذلك اليوم، ويراقبون الله تعالى في جميع حركاتهم وأقوالهم وأفعالهم، وفي الحديث الصحيح. «**أحفظ الله يحفظك**» [رواه الترمذي عن ابن عباس كما في صحيح الجامع].

٥-الشجاعة والإقدام:

كلمة قالها أحد الصحابة، لعمر رضي الله عنه : أشجاع في الجاهلية خوار في الإسلام ؟! هزت كيان عمر هذه الكلمات، وأيقن أن الشجاعة من صفات الرجل المؤمن.

الشجاعة خلق جميل عليه الأخيار والصالحون، وليست الشجاعة فقط أن تحمل سلاحك تجاه العدو، بل الشجاعة تتجلى في عدة مواقف، وفي عدة أمور، يمكننا أن نضع أيدينا على بعضها وهي:

أ- التماسك عند مواجهة الخطر، وربط القاعدة بالقيادة،

خصوصاً في الظروف الأليمة، وعند تخاذل بعض الأفراد، وعــدم الاستسلام والتخاذل، وبعث روح الانهزامية عنهم، وهذا ما تجلــى واضحاً في موقفه ﷺ يوم حنين، يوم أن حصل ما حصل، فركــب دابته، وجعل يجول في ساحة المعركة، وهو يقول:

أنـــا الـــنبي لا أكـــذب
أنـــا ابـــن عبـــد المطلـــب

ب- التغلب على الصـعوبة والأخطـار، بأقـل الخسـائر والتكاليف، أو كما يقال الخروج بأقل خسائر إن أمكن.

ج- احتمال أشد الآلام بصبر وثبات، ولهذا لما خالف الرمـاة أوامر رسول الله ﷺ، طالت أيدي الكفار النبي ﷺ فقد شج رأسه، وكسرت رباعيته، وأدمي وجهه، وسقط في الحفرة، حتى شـاعت الشائعة أن الرسول ﷺ قد مات.

د- من الشجاعة أيضا، تحمل المسؤولية لأعمالك، وعدم رمي التبعات على الغير.

هـ- الاعتراف بالخطأ، وعدم التملص، مع تصحيح المسـار، وليس الخطأ خدشاً في الرجولة، ولكن الاستمرار في الخطأ نقـص فيها.

و- من الشجاعة الدفاع عن المبدأ والمنهج، ولو بذل من أجلها الغالي والنفيس، ولو بُذل نفساً أو مالاً.

٦-الفراسة:

وهي صفة من صفات الرجولة التي امتدحها الله تعالى ورسوله ﷺ.

قال تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾[الحجر:٧٥] قال مجاهد: للمتفرسين : وعن ابن عباس والضحاك : للناظرين.

وعن قتادة: للمعتبرين؛ فالرجل هو الذي يتوسط ويتفرس فيمن حواليه، هذه صفة يتصف بها غالبا الرجل القائد، الذي يتفرس في وجوه قاعدة، فيضع الرجل المناسب في المكان المناسب، ولهذا امتدح النبي ﷺ هذه الخصلة وهذه الصفة، فقال: «**إن لله تعالى عبادا يعرفون الناس بالتوسم**»[حديث حسن رواه الحكيم الترمذي والبراز عن أنس كما في صحيح الجامع] فامتدحهم بالعبودية لله سبحانه وتعالى، لأنهم يتصفون بهذه الصفة الحميدة.

٧-التعلم والاستفادة من الغير:

الرجل العاقل من يتعلم من غيره، ويستفيد من تجارب الآخرين، ويتعظ بهلاك المجرمين. ولهذا فالرجل هو من يبدأ من حيث انتهى الآخرون، ويستفيد من تجارب وخبرات من سبقه.

فهذه النخلة لا تقع إلا على طيب، ولا تضع إلا طيباً، وهذه النخلة أصلها ثابت، وفرعها في السماء، شبه الرسول ﷺ المؤمن بها، وذلك لثبات وصلابة أصلها، وعلو وسمو فرعها.

فهل تستطيع أيها الرجل المؤمن أن تكون كالنخلة، لا تضع إلا طيباً، وهل تستطيع أن تتصف بصفات النخلة، يرميها خصمها بالحجر، فتلقي له أطيب الثمر؟ هل تستطيع ذلك؟ هنيئا لك إن كنت أهلا لذلك ولا تكن مثل الذباب لا يقع إلا على القاذورات، ولا يضع إلا قذراً، فلا تتبع الزلات وعليك بميزان الحسنات والسيئات وكلك عورات.

٨-الجدية في موضعها والمزاح في موضعه:

كثير من الناس قد تختلط عليه الأوراق، فلا تعرف جده من هزله ولكن الرجل من يستطيع أن يضبط ذلك كله، الرجل يستطيع أن يميز مواضع الجد عن مواضع المزح والهزل.

ولذلك كان من صفاته ﷺ كما قال عن نفسه: «**إني لأمزح، ولا أقول إلا حقاً**» [رواه الطبراني عن ابن عمر، انظر صحيح الجامع).

***نماذج من مزاحه صلي الله عليه وسلم:**

١- عندما جاءته امرأة عجوز، فقال لها: «**لا يدخل الجنة عجوز**» [حديث حسن بشواهده بألفاظه، عند الترمذي في الشمائل] فجعلت المرأة العجوز تبكي، فعندما ذكر له ﷺ من شأنها، فقال: «**ألم تقرؤوا قول الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا * عُرُبًا أَتْرَابًا * لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾**[الواقعة:٣٥-٣٧] **فالمرأة العجوز لا تدخل الجنة عجوزاً، ولكنها تدخل الجنة على مقتبل عمرها، وأحسن ما خلق الله من جمال أودعه في المرأة**».

٢- وقال مرة لأنس بن مالك: «**يا ذا الأذنين**»[رواه أحمد وأبو داود، عن أنس، وهو في صحيح الجامع].

٣- وجاءه رجل فقال: احملني يا رسول الله، فقال له الرسول ﷺ «**إني حاملك على ولد الناقة**» فقال الرجل: وماذا أصنع بولد الناقة؟ قال الرسول ﷺ : «**وهل تلد النوق إلا الإبل**» أو كما قال [رواه أحمد والترمذي وأبو داود. وهو حديث صحيح].

وسئل النخعي: هل كان أصحاب محمد ﷺ يضحكون؟ قال: نعم، والإيمان في قلوبهم مثل الجبال الرواسي.

٩-العفو عند المقدرة:

قال تعالى: ﴿**خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**﴾[الأعراف:١٩٩] لما كانت هذه من أعلى صفات الرجولة، ومن أفضل نعوت القيادة، أمر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ أن يتصف بها.

فالرجل من يعفو عن زلات وهفوات الآخرين، مع كمال قدرته البشرية على الانتقام، ولكنه يترك ذلك لله – عز وجل- وذلك امتثالا لقوله تعالى: ﴿**وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾[آل عمران:١٣٤]. وفي الصحيحين من حديث عائشة الطويل: "... وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه في شيء قط، إلا أن تنتهك حرمة الله، فينتقم الله تعالى".

وقصة ملك الجبال في الصحيحين، عندما جاء إلى النبي ﷺ، وهو خارج من الطائف وقدمه تسيل دماً، وأطفال الطائف يتبعونه بالحجارة، فجلس تحت شجرة، فجاءه الملك : (إذا أردت يا محمد أن أطبق عليهم الأخشبين لفعلت)[١] وهو في هذا الموقف، يخرج طريداً، والسفهاء يدمون قدميه بالحجارة، إن حالة كهذه يصل إليها رجل قد يفقد أعصابه، أو يملي عليه هواه بالانتقام من هؤلاء، خصوصا أن الفرصة متاحة،بل جاءت الفرصة إليه،و لم يطلبها، و لم

---

(١) الأخشبان: الجبلان العظيمان في الطائف.

يجر بعدها. مع ذلك كله، فإنه ﷺ أبى أن ينتقم لنفسه، وحلق في الفضاء يتأمل، ويتبصر في دعوته، ويرجو ويدعو ربه أن يخلق من أصلاب هؤلاء من يعبد الله ويوحده فقال ﷺ للملك : «**لعل الله يخرج من ضئضئ هؤلاء من يعبد الله**»، أو كما قال.

١٠- التألم والتحرق على المسلمين في أي بقاع الأرض كانوا:

وإن من صفات الرجولة أن يعيش الرجل آلام الآخرين من أبناء أمته، ومن رجالات عقيدته، فالأنانية مذمومة وليست من صفات الرجولة.

والرجل من يتألم للمسلمين ويعيش واقعهم ويدعو الله – عز وجل- بالنصر لهم والتمكين في الأرض وهو أقل ما يمكن أن يفعله لإخوانه.

١١-التحلي بالأخلاق الحميدة الحسنة مثل:

أ- التواضع:

قال تعالى: ﴿**وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾[الحجر:٨٨] وحديث النبي ﷺ : «**وما تواضع أحد لله إلا رفعه**» [رواه مسلم عن أبي هريرة].

وقال ﷺ: «**من ترك اللباس تواضعا لله، وهو يقدر عليه، دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق، حتى يخيره أي حلل الإيمان شاء يلبسها**»[حديث حسن رواه الترمذي عن معاذ بن أنس أنظر صحيح الجامع].

ب- الحلم والأناة:

قال ﷺ : «**إن فيك لخصلتين يحبها الله : الحلم والأناة**»[رواه مسلم عن ابن عباس].

ج–الصبر:

الرجل هو صاحب المواقف، والرجل هو رجل الموقف والكلمات. فكم من مواقف لا يستطيع أن يصمد فيها، ويصبر عليها كثير من الناس، ولكن الرجل هو الذي يستطيع أن يتملك الموقف، ومن ثم يستطيع بعد ذلك أن يحدد موقفه من تلك القضية.

والصبر أنواع:

الصبر على الطاعات.

الصبر على المعاصي.

الصبر على البلايا والمصائب والمحن.

د–الحكمة:

قال تعالى: ﴿**وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا**﴾[البقرة:٢٦٩] هناك مواقف كثيرة، وقفها رسول الله ﷺ بحكمة وحلم، وتؤدة ورفق ولين، خصوصاً أمام جهل الجاهلين، وحجج المبطلين، وكم من رجل أسلم على يديه ﷺ بسبب مواقفه الحكيمة ومن هذه النماذج.

– الأعرابي الذي تبول في المسجد، كيف عالج النبي ﷺ قضيته بحكمة ورفق ولين.

– الرجل الذي خنقه بردائه وطلب منه المال، كيف كان تصرفه الحكيم ﷺ معه.

– الرجل الذي جاء يستأذن بالزنا، كيف كان موقفه ﷺ.

- الأعرابي الذي حمل عليه سيفه وهو نائم.. قال: من ينجيك مني يا محمد؟ فقال: الله. وكيف عامله الرسول ﷺ بعد ذلك.

هـ- الجود والكرم والبذل والإنفاق:

الرجل هو الذي لا يبالي مهما أنفق، وذلك من أجل انتصار المبدأ والمنهج والعقيدة، فهو يرى أن كل غال ونفيس يهون دون العقيدة والمبدأ، لذلك فإن من الصفات الحميدة التي يجب على الرجل أن يتصف بها هو الجود والكرم، والبذل والإنفاق في سبيل نصر هذا الدين وإعلاء كلمة الله سبحانه وتعالى.

و- الحياء:

قد يظن بعض الناس أن الحياء ليس من صفات الرجولة، والجواب العكس. فالحياء من أهم صفات الرجولة. كيف لا يستحي الرجل خصوصا من الله — عز وجل- بل كان سيد الأولين والآخرين أشد حياء من العذراء في خدرها. [رواه الشيخان عن أبي سعيد].

وقفة:

إذا علمت أيها القارئ الكريم أن هذه الصفات هي من صفات الرجولة، وهي ليست كل الصفات التي يجب عليك أن تتحلى بها كرجل ولكنها جهد المقل، وعلى حسب نظرة كاتب هذه السطور، فيجب عليك أيضاً أن تعلم أن هناك صفات قد يظن البعض أنها من تمام صفات الرجال وهي حقيقة مذمومة.

لذلك أيها الأخ الحبيب يجب عليك أن تنتبه، ولا تختلط عليك

الأمور، تظنها صفات محمودة، وهي على الحقيقة مذمومة.

صفات مذمومة يظنها البعض من الرجولة:

١- الغلظة والشدة والقسوة مع من دونه خصوصاً مع أهلــه (زوجته) وأولاده، فبعضهم يظن أن من تمام الرجولة وكمال التربية الشدة والقسوة خصوصاً مع النساء، حتى تثبت شخصيتك في المنزل أو فيمن تتعامل معهم حواليك، والقدوة والأسوة رســول الله ﷺ فقد قالت عائشة رضي الله عنها : «**كان رسول الله ﷺ يكون في مهنة أهله – يعني خدمة أهله– فإذا حضرت الصلاة خــرج إلى الصلاة**»[رواه البخاري] بل كان يمزح مع زوجاتــه ﷺ وســابق عائشة فسبقها، ثم سابقها مرة أخرى فسبقته. فقال: «**هذه بتلك**».

٢- المرأة في غير موضعها أو بغير حق: ليست كــل جــرأة ممدوحة بل كما يقال: بين الشجاعة والحماقة شعرة. فقد تقطــع هذه الشعرة وصير الشجاعة والجرأة حماقة، خصوصاً إذا لم تكن في موضعها أو كانت بغير حق أو صحبها باطل، أو لازم هذه الجــرأة جهل فهذه كلها تنافي وصف الرجولة الحقة.

٣- الكبر والخيلاء: ليس الرجل من يتكبر على من حواليــه، وليس من صفات الرجال أن ترى نفسك أعلى وأكبر من غــيرك، فالتواضع من أخلاق الرجال ولهذا بين الله – عز وجل- حقيقــة المتكبر، أنه مهما عمل لن يخرق الأرض ولن يبلغ الجبــال طــولا: ﴿**وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَــنْ تَبْلُــغَ الْجِبَالَ طُولًا**﴾[الإسراء:٣٧]. وقال رسول الله ﷺ : «**ولا يــدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**» [رواه مسلم عن ابــن

مسعود].

٤- احتقار الآخرين والسخرية بهم، والازدراء بأعمالهم واعتبار نفسه وإهمال الآخرين، هذه كلها صفات نقص في الرجال، وليست صفات مدح، لأنه لا يعمل هذا إلا من شعر نفسه أنه دون الرجال، فيؤدي به هذا الشعور إلى الترفع عن الآخرين واحتقارهم.

ولهذا يقول تعالى: ﴿**لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ**﴾[الحجرات:١١] فقوله: ﴿**عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ**﴾فيه وأد للشعور بالأنانية والأفضلية لنفسه.

٥- الفوضوية والارتجال في الأعمال، واتخاذ القرارات الآنية بدون مقدمات، أو إجراء تلائم بين تلك القرارات، ظناً أنها من لوازم الرجولة.

٦- الظلم والسطو والبطش والاعتداء على الآخرين، وغالب ما يحدث من كثير من الشخصيات، خصوصا الاعتبارية –كما يقال- وذلك كل على حسب موقعه ولو كان في أدنى مرتبة من مراتب المسؤولية، وكان بعضهم يتحقق فيه قول القائل.

والظلم من شيم النفوس وإن تجد
ذا عفة فلعله لا يظلم

٧- الترفع عن مجالسة الضعفاء والمساكين : يظن بعض من تحمل شيئا من المسؤولية، أن من تمام الرجولة وتحمل هذه المسؤولية، هو مجانبة أمثال هؤلاء خصوصا إذا كانوا من الصالحين الزاهدين العابدين. ولهذا لما طلب من الرسول ﷺ أن يتجنب مجالسهم،

جاءت الأوامر من السماء : ﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ**﴾[الكهف:٢٨] وقال تعالى آمرا نبيه ﷺ بخفض الجناح للمؤمنين: ﴿**وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾[الشعراء: ٢١٥].

٨- ارتكاب بعض المخالفات الشرعية كالسيجارة والقات، وغيرها مما هو أعظم، ظناً من البعض أنها من صفات الرجولة. وأكثر الأخطاء تحدث من قبل بعض الآباء، فتجده قد ينتقد ولده إذا ارتكب واحدة من هذه، فإذا حاوره قائلاً: وأنت لم تفعل ذلك يا أبت؟ فيقول : أنا رجل!! أنا إنسان كبير!! أنا أعرف مصلحتي، فيبقى في ذهن الولد الصغير أنه متى ما كبر وصار رجلاً، فإنه سيمارس هذه الأمور ولا نكير. لذلك لا يستطيع كثير من الآباء أن يزجروا أولادهم عن مثل هذه المخالفات، لأنهم واقعون فيها.

لا تنه عن خلق وتأتي مثله   عار عليك إذا فعلت عظيم

وأخيراً:

أيها القارئ الكريم وبعد هذه الجولة القصيرة، مع صفات الرجولة وما يخالفها، فلا أخالك تختار لنفسك إلا الأصلح والأفضل، ولا أظنك ترضى لنفسك الدون، وتقبل بالذل والخضوع الذي يعيشه كثير من أبناء هذه الأمة، تحت وطأة الظالمين وحكم الطغاة، ولذلك أقول لك : عش لحظة تفكر وتأمل في تغيير واقعك إلى الأحسن، ورفع مستوى أمتك إلى الأفضل، فكن رجلا مثل الرجال الذين سادوا وأذعنت لهم الأجيال وسار في ركبهم الرجال.

تحبونهم
ولا يحبونكم

إن مما شرف الله – عز وجل- المسلم أن جعل عبوديته له سبحانه وتعالى، وجل عزته وتمكينه في الأرض على حسب تمسكه بدينه والتزامه بأمور الشرع، قال تعالى : ﴿**الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ**﴾[الحج:٤١] ولذلك فإن الواجب على المسلمين جميعا – ذكوراً وإناثاً- أن يرفعوا رؤوسهم بالإسلام ويعتزوا بالعقيدة والإيمان: ﴿**وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ**﴾[المنافقون:٨].

إن كثيرا من أبناء هذه الأمة - اليوم - يصعب عليه أن يعيش استقلالية كاملة، يمكنه بها أن يبني شخصيته، ويقوم عليها حياته، ويعيش بذلك مبدأ ومنهجاً لا يمكنه أن يحيد عنه أو ينأى عنه، شريطة أن يكون هذا المبدأ والمنهج غير مخالف للشرع.

وإن من المؤسف اليوم أننا نجد كثيرا من أبناء هذه الأمة وبناتها يقلدون الغرب الكافر، في كثير من أمور حياتهم، وربما كانت تافهة جداً. وكثير منهم يعلم أن الكافرين يحتقرون هذه التبعية العمياء، ولذلك يحكى عن أحد الراقصين الغربيين أنه سئل: من تبغض؟ فقال: العرب فقيل: و لم؟ قال: لأنهم يقلدون الغرب تقليداً أعمى!! وهذه شهادة كافر - قبحه الله - ببغضه للمسلمين وبالذات العرب منهم. وقد صدق الله - عز وجل - حيث قال: ﴿**هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ**﴾[آل عمران:١١٩].

فإذا علمنا هذا فإنه يجب علينا أن نعلم أن مشابهة الكافرين أو تقليدهم أو الاحتفال بأعيادهم واحتفالاتهم أو التزيي بزيهم أو مشابهتهم في أقوالهم وأفعالهم... كل ذلك أمر محظور شرعاً، بل قد يؤدي بعضه إلى موالاتهم ومحبتهم ومودتهم من غير المؤمنين. وهذا قد يؤدي به إلى الكفر والعياذ بالله تعالى.

واعلم أن نصوص الكتاب والسنة قد تضافرت في النهي عن مشابهة الكافرين أو تقليدهم، ولذلك نستعرض بعض هذه النصوص بشكل موجز.

أما الكتاب، فقد قال تعالى: ﴿**وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾[آل عمران:١٠٥] وقال أيضا: ﴿**ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ**﴾[الجاثية:١٨] وقد جاءت التحذيرات من رب العزة والجلال لنبيه ﷺ ألا يتبع أهواء الكافرين، وإلا فالعاقبة كما قال: ﴿**وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ**﴾[الرعد:٣٧].

﴿**وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ**﴾[البقرة:١٢٠].

﴿**وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ**﴾[البقرة:١٤٥].

فإذا كانت هذه التحذيرات وهذه العواقب يخاطب بها رسول الله ﷺ فما بالك بحالنا؟! الله المستعان.

وأما من السنة فقد جاءت التحذيرات منه ﷺ لأمته من أن تقع فيما وقعت فيه الأمم الماضية وجاءت النصوص في النهي عن مشابهتهم ومن هذه الأحاديث.

١- عن معاوية بن حيدة رضي الله عنه قال: قال رسول ﷺ : «**ابغض الناس إلى الله ثلاثة: ملحد في الحرم، ومبتغ في الإسلام سنة الجاهلية، ومطلب دم امرئ بغير حق ليهرق دمه**» [رواه البخاري] فالذي يريد في المسلمين سنة الجاهلية من أبغض الناس إلى الله.

٣- عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبراً بشبر، أو ذراعاً بذراع، حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه، قالوا: اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟**»[متفق عليه].

٤- عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لتركبن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع حتى لو أن أحدهم دخل جحر الضب لدخلتم، وحتى لو أن أحدهم جامع أمه في الطريق لفعلتموه**» [رواه الحاكم عن ابن عباس (انظر السلسة الصحيحة رقم ١٣٤٨)].

٥- عن أبي واقد الليثي رضي الله عنه أنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر، وللمشركين سدرة يعكفون عندها، وينوطون(١) بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط، فمررنا بسدرة، فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط

(١) ينوطون: يعلقون.

كما لهم ذات أنواط، فقال رسول الله ﷺ : «**الله أكبر إنها السنن، قلتم – والذي نفسي بيده – كما قالت بنو إسرائيل لموسى:** ﴿**اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ**﴾[الأعراف:١٣٨] **لتركبن سنن من كان قبلكم**» [حديث صحيح رواه الترمذي والنسائي].

وهناك جملة كبيرة من الأحاديث، سنتعرض لها من خلال ذكر النماذج التي وردت النصوص بتحريم مشابهة الكافرين بها.

أيها الأخ المسلم : أيتها الأخت المسلمة : إن من أعظم ما ابتليت به بعض المجتمعات الإسلامية اليوم هو الاحتفال بأعياد الكافرين، ومنها احتفالات رأس السنة الميلادية(١) وتهنئة بعضهم لبعض، وقد نص أهل العلم على تحريم ذلك، بل قد يؤدي به إلى الكفر والعياذ بالله تعالى. وقد عقد شيخ الإسلام فصلا خاصا في كتابه (اقتضاء الصراط المستقيم) حول الاحتفال بأعياد الكفار. وأورد الآثار عن الصحابة والتابعين في تحريم ذلك، وربما كفر من فعل ذلك. فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما – بسند صحيح – قال : من بنى ببلاد الأعاجم فصنع نيروزهم (٢) ومهرجانهم، وتشبه بهم حتى يموت وهو كذلك، حشر معهم يوم القيام. وقال عمر رضي الله عنه : (اجتنبوا أعداء الله في عيدهم)

(١) والعجب لما يفعله بعض الناس من مشابهة الكافرين في هذه الليلة، فيصنعون ألوان الطعام والشرب والحلوى، ثم يطفئون السراج في الساعة الثانية عشرة ليلاً، وربما حدث أن يقبل بعضهم بعضا ذكورا وإناثاً، يهنئ بعضهم بعضا بهذه السنة الجديدة والله المستعان!.

(٢) يوم النيروز هو عيد المجوس.

وذكر جماعة من المفسرين في قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ**﴾[الفرقان:٤٢] أي: أعياد المشركين. وقال بعض أصحاب مالك: (من ذبح بطيخة في أعيادهم فكأنما ذبح خنزيراً).

ثم قال شيخ الإسلام ابن تيمية: فلا فرق بين مشاركتهم في العيد، وبين مشاركتهم في سائر المناهج، فإن الموافقة في جميع العيد، موافقة في الكفر، والموافقة في بعض فروعه موافقة في بعض شعب الكفر. بل الأعياد هي أخص ما تتميز به الشرائع، ومن أظهر ما لها من الشعائر، فالموافقة فيها موافقة في أخص شرائع الكفر وأظهر شعائره، ولا ريب أن الموافقة في هذا قد تنتهي إلى الكفر في الجملة بشروطه(1).

وأعلم أيها الأخ المسلم: أن المشابهة لا تصح بالكافرين، ولو بمقالة كما قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾[البقرة:١٠٤] وذلك لأن اليهود كانوا يقولون هذه الكلمة يريدون بها ذماً للرسول ﷺ.

وإليك جملة من النماذج التي وردت في الشرع مما يجب فيه مجانبة الكافرين وعدم مشابهتهم سواء كان ذلك في العبادات أو المعاملات أو اللباس والزينة أو حتى في العادات.

وإليك بعض الأمثلة لذلك:

١-النهي عن التشدد والتنطع في أصل العبادات:

وقد جاءت النصوص بالنهي عن ذلك، حتى لا تكون المشابهة لأهل الكتاب في ذلك. قال تعالى: ﴿**وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا**

(١) اقتضاء الصراط: (١/٤٧-١/٤٢٨).

عَلَيْهِمْ﴾[الحديد:٢٧] بل وقد نهى أهل الكتاب عن الغلو، فقال تعالى: ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ**﴾[المائدة:٧٧]. ولكنهم تنطعوا وتشددوا حتى كان سببا في هلاكهم. فعن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «غداة العقبة [1] وهو على ناقته : «**القط لي حصى**» فلقطت له سبع حصيات، ومن حصى الخذف، فجعل ينفضهن في كفه ويقول: «**أمثال هؤلاء فارموا** »ثم قال «**أيها الناس إياكم والغلو في الدين، فإنما هلك من كان قبلكم الغلو في الدين**» [رواه أحمد والنسائي وابن ماجة. قال شيخ الإسلام : وهذا إسناد صحيح على شرط مسلم] والشاهد من الحديث قوله : «فإنما هلك من كان قبلكم الغلو في الدين».

٢- النهي عن اتخاذ القبور مساجد مشابهة لأهل الكتاب:

فقد جاء التحذير منه ﷺ من ذلك، حتى لا تقع الأمة فيما وقع فيه أهل الكتاب من اللعن. ففي الصحيحين عن عائشة وابن عباس – رضي الله عنهما – قالا : «لما نزل رسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه. فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه، فقال وهو كذلك «**لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**» يحذر ما صنعوا». وفي الصحيحين أيضا من حديث أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال : «**قاتل الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**».

٣-النهي عن مشابهة أهل الكتاب في الأذان:

عن أبي عمير بن أنس عن عمومة له من الأنصار قال : «اهتم

(١) أي غداة رمي جمرة العقبة في الحج.

النبي ﷺ للصلاة كيف يجمع الناس لها، فقيل له: انصب راية عند حضور الصلاة، فإذا رأوها آذن بعضهم بعضاً، فلم يعجبه ذلك. قال فذكر له القنع يعني الشَّبُّور (١) وقال زياد: شبور اليهود، فلم يعجبه ذلك. وقال: «**هو من أمر اليهود**». قال فذكر له الناقوس. فقال : «**هو من أمر النصارى**». فانصرف عبد الله بن زيد بن عبد ربه وهو مهتم لهم رسول الله ﷺ، فأري الأذان في منامه... الحديث» [الحديث بطوله رواه أبو داود رقم (٤٩٨) وصححه الألباني] والشاهد من الحديث أن النبي ﷺ لم يعجبه البوق ولا الناقوس وعلله بأنه من فعل اليهود والنصارى.

٤- النهي عن مشابهة أهل الكتاب في أفعال الصلاة:

أ- النهي عن النوافل حين يسجد للشمس:

عن عمرو بن عبسة – في قصة إسلامه وحديثه طويل وفيه – قال : قلت: يا نبي الله، أخبرني عما علمك الله وأجهله، أخبرني عن الصلاة؟ قال ﷺ: «**صل صلاة الصبح، ثم أقصر عن الصلاة حتى تطلع حين تطلع بين قرني شيطان، وحينئذ يسجد لها الكفار..ثم أقصر عن الصلاة حين تغرب الشمس فإنها تغرب بين قرني الشيطان وحينئذ يسجد لها الكفار**»[رواه مسلم رقم (٨٣٢) وهو حديث طويل في قصة إسلام عمرو بن عبسة رضي الله عنه].

فالحديث فيه النهي عن الصلاة في هذه الأوقات مع أنه معلوم أن المؤمن لا يقصد السجود إلا لله تعالى، ولكن حسما لمادة المشابهة بكل طريق، هكذا ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية.

(١) وهو البوق.

ب- ترك الصلاة مشابهة للكافرين.

عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «**بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة**»[رواه مسلم] وعنه أيضا قال ﷺ: «**بين الكفر والإيمان ترك الصلاة**»[رواه الترمذي وهو صحيح كما في صحيح الجامع].

ج- النهي عن الاختصار في الصلاة.

ومعناه أن يضع يديه على خاصرته وهو يصلي، ففي صحيح البخاري عن النبي ﷺ : «نهى أن يصلي الرجل مختصراً» وعن عائشة: "إن اليهود تفعله ولذلك فإن النبي ﷺ نهى عن مشابهتهم".

د- الاتكاء على اليد اليسري وهو جالس في الصلاة:

وقد ورد عن النبي ﷺ النهي عن ذلك. وفيه: «نهى رجلا وهو جالس معتمد على يده اليسرى في الصلاة، فقال: «**إنها صلاة اليهود**» [رواه البيهقي والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (انظر صفة صلاة النبي للألباني) وفي حديث آخر «**هي قعدة المغضوب عليهم**» [رواه عبد الرزاق وصححه عبد الحق (صفة الصلاة)].

هـ- النهي عن اشتمال الصماء كاليهود:

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ : «**إذا كان لأحدكم ثوبان فليصل فيهما، فإن لم يك إلا ثوب فليتزر به ولا يشتمل اشتمال اليهود**»[حديث رقم (٦٣٥)]. وفي حديث آخر «نهى عن الصماء والاحتباء في ثوب واحد» [رواه أبو داود عن جابر انظر صحيح الجامع].

و- النهي عن السدل وتغطية الفم في الصلاة:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ : «نهى عن السدل في الصلاة وأن يغطي الرجل فاه»[رواه أبو داود، حديث رقم (٦٤٣) وصححه الألباني].

والنهي عن السدل لما فيه من مشابهة اليهود، وقد رأى علي رضي الله عنه قوماً قد سدلوا، فقال : ما لهم؟ كأنهم اليهود خرجوا من فهرهم أي مدرسهم والسدل معناه كما قال صالح بن أحمد : "سألت أبي عن السدل في الصلاة؟ فقال: يلبس الثوب، فإذا لم يطرح أحد طرفيه على الآخر فهو السدل» [اقتضاء الصراط (٣٤٣/١)] وقال شيخ الإسلام: وهذا هو الذي عليه عامة العلماء. وأما ما ذكره الآمدي وابن عقيل: أن السدل هو إسبال الثوب بحيث يتنزل على قدميه، ويجره فغلط مخالف لعامة العلماء، وإن كان الإسبال والجر منهيا عنه بالاتفاق، لكن ليس هو السدل، وأما تغطية الفم فقد علله بعضهم بأنه فعل المجوس عند نيرانهم التي يعبدونها، فعلى هذا تظهر مناسبة الجمع بين النهي عن السدل وعن تغطية الفم، كما في كلاهما من مشابهة الكفار [قاله شيخ الإسلام في الاقتضاء: ٣٤٤/١)

ز- الصلاة في النعال مخالفة لليهود:

عن شداد بن أوس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «**خالفوا اليهود، فإنهم لا يصلون في نعالهم ولا خفافهم**»[رواه أبو داود والحاكم والبيهقي. وهو في صحيح الجامع] وفي حديث آخر قال ﷺ: «**صلوا في نعالكم ولا تشبهوا باليهود**»[رواه الطبراني عن شداد بن أوس والحديث في صحيح الجامع].

ج- النهي عن القيام خلف الإمام وهو قاعد:

عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله : «**إذا صلى الإمام جالسا فصلوا جلوساً، وإذا صلى الإمام قائما فصلوا قياماً، ولا تفعلوا كما يفعل أهل فارس بعظمائها**» [رواه أبو داود(٦٠٢) وهو صحيح].

وعن الإمام مسلم في صحيحه من حديث جابر أيضا: «**إن كدتم آنفا تفعلون فعل فارس والروم، يقومون على ملوكهم وهم قعود...**»[رقم٤١٣] والمسالة خلافية عند الفقهاء في الجلوس خلف الإمام القاعد أو القيام، ولكن العلة باقية في النهي عن المشابهة، وحتى لو ثبت نسخ الحديث بما فعله في آخر عمره أنهم صلوا خلف الرسول ﷺ قياماً وهو قاعد، فإن الحجة قائمة، لأن نسخ القعود لا يدل على فساد تلك العلة، وإنما يقتضي أنه قد عارضها ما ترجح عليها، مثل كون القيام فرضا في الصلاة، فلا يسقط الفرض بمجرد المشابهة الصورية، وهذا محل اجتهاد[1] .

٥-النهي عن مشابهة أهل الكتاب في أعمال الصيام

أ-النهي عن وصال الصوم مشابهة بالنصارى:

عن ليلى الشيبانية – امرأة بشير بن الخصاصية – قالت: أردت أن أصوم يومين مواصلة، فنهاني عنه بشير، وقال : إن رسول الله ﷺ نهاني عن ذلك . وقال : «**إنما يفعل ذلك النصارى . صوموا كما أمركم الله، وأتموا الصوم كما أمركم الله، وأتموا الصيام إلى**

---

(١) هكذا ذكره شيخ الإسلام، وإن كان يرجح إن الحديث محكم وليس منسوخا وهو مهب أحمد وعند الشافعي أن الحديث منسوخ بما فعله في آخر عمره.

الليل، فإن كان الليل فافطروا»[1] .

ب- أكل السحور مخالفة لأهل الكتاب لأنهم لا يتسحرون:

عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السحر**» [رواه مسلم وأصحاب السنن الأربعة].

ج- تعجيل الفطر في الصيام:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يزال الدين ظاهراً ما عجل الناس الفطر، لأن اليهود والنصارى يؤخرون**» [رواه مسلم وأصحاب السنين الأربعة]. ولو تعمقت في النظر- أيها القارئ الكريم – كيف أن مخالفة اليهود والنصارى ظهور لهذا الدين، علمت يقينا أن البراءة من الكافرين واجب شرعي لابد منه، ولو في أبسط المعاملات وأقلها.

د-النهي عن تقديم صوم رمضان بيوم أو بيومين:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «**لا تقدموا شهر رمضان بصوم قبله بيوم أو يومين، إلا أن يكون رجل كان يصوم صوماً فليصمه**» [رواه البخاري ومسلم وأصحاب السنن الأربعة] وقد علل الفقهاء عن ذلك بكراهية الزيادة على الصوم المفروض كما زاده أهل الكتاب هكذا ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية.

---

(١) قال الحافظ في الفتح (٢٠٢/٤) وهذا أخرجه أحمد والطبراني وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبي حاتم في تفسيرهما بإسنادهما بإسناد صحيح. وهذا لفظ ابن أبي حاتم.

هـ- صيام عاشوراء ويوما قبله أو بعده، مخالفة لليهود:

عن ابن عباس رضي الله عنهما حين صام رسول الله ﷺ يوم عاشوراء وأمر بصيامه، قالوا : يا رسول الله ﷺ : «إذا كان العام المقبل -إن شاء الله - صمنا اليوم التاسع» قال: فلم يأت العام المقبل في مسنده: عن ابن عباس قال: قال رسول الله : «**صوموا يوم عاشوراء وخالفوا فيه اليهود، وصوموا قبله يوما أو بعده يوماً**».

٦- النهي عن مشابهة الكفار في المظهر والزينة:

أ- النهي عن مشابهتهم في عدم صبغ الشعر:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «**إن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم**» [متفق عليه].

ب- النهي عن حلق اللحية مشابهة بالكافرين.

عن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله : «**خالفوا المشركين، أحفوا الشوارب وأوفروا اللحى**» [متفق عليه] وقد جاءت النصوص الكثيرة بإعفاء اللحية وعدم الأخذ منها. ولذلك ذهب الأئمة الأربعة إلى تحريم حلق اللحية للرجال.

ج- النهي عن زي أهل الشرك.

عن عمر رضي الله عنه أنه كتب إلى المسلمين المقيمين ببلاد فارس: «إياكم وزي أهل الشرك» [رواه البخاري موقوفاً على عمر رضي الله عنه].

د-النهي عن اتخاذ الشعر المستعار:

عن معاوية رضي الله عنه قال: يا أهل المدينة أين علماؤكم؟

سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن مثل هذه ويقول: «**إنما هلكت بنو إسرائيل حين اتخذها نساؤهم**»وفي رواية سعيد بن المسيب – في الصحيح – أن معاوية قال ذات يوم : إنكم أحدثتم زي سوء وإن نبي الله ﷺ نهى عن الزور»قال : وجاء رجل بعصي على رأسها خرقة، قال معاوية : «ألا وهذا الزور» قال قتادة: يعني ما يكثر به النساء أشعارهن من الخرق(١) .

٢٧– ترك بعض أمور الجاهلية حتى لا نشابههم في ذلك.

أ– التعزي بعزاء الجاهلية

عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ : «**من تعزى بعزاء الجاهلية فأعضوه** (٢) **بهن أبيه ولا تكنوا**» قال البغوي في شرح السنة (قوله «**من تعزى بعزاء الجاهلية**» أي: انتسب وانتمي، كقولهم: يا فلان، أو يا لنبي فلان، يقال : عزوت الرجل وعزيته إذا نسبته، وكذلك كل شيء تنسبه إلى شيء) [رواه أحمد بسند صحيح].

ب– الدعاء بدعوى الجاهلية:

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليس منا من ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية**»[متفق عليه].

---

(١) وهذا بعينه قد ابتليت به بعض النساء فيدخلن الخرق السوداء في شعورهن للتكثير أو لتسريحات معينة حسب الموضة –زعموا.

(٢) أي قولوا له: اعضض ذكر أبيك. ولا تكنوا: أي صرحوا بلفظ الذكر بدون كتابة.

ج–أربعة خصال لا تتركها الأمة، وهي من خصال الجاهلية:

عن أبي مالك الأشجعي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: «**أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن : الفخر بالأحساب والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم والنياحة**»وقال: «**النائحة إذا لم تتب قبل موتها، تقام يوم القيامة وعليها سربان من قطران ودرع من جرب**» [رواه مسلم] وفي حديث آخر: «**أربع في أمتي من أمر الجاهلية لم يدعهن الناس: الطعن في الأنساب، والنياحة على الميت، والأنواء** – مطرنا بنوء كذا وكذا – **والإعداء جرب بعير فأجرب مائة بعير فمن أجرب البعير الأول؟**»[حديث حسن رواه أحمد والترمذي عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع].

ولو نظرنا إلى كثير من النصوص الشرعية لرأينا أن النبي ﷺ كان ينهي أمته عن خصال الجاهلية، ويزجرهم عن ذلك، ولذلك قال لهم : «**دعوها فإنها خبيثة**» وذلك عندما حصل نزاع بين أحد المهاجرين وأحد الأنصار، فقال أحدهما: يا للمهاجرين . وقال الآخر : يا للأنصار . فبين ﷺ أنها دعوى جاهلية فقال: «**ما بال دعوى الجاهلية؟**» ثم قال: «**دعوها فإنها خبيثة**» [والحديث بطوله في الصحيحين] وكذلك أصل هذا الأمر في خطبة حجة الوداع فقال: «**ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي هاتين موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة...** » الحديث إلى آخره [رواه الشيخان]، فتبين من هذا، أن التحذير من هذا كله حتى لا تقع هذه الأمة فيما وقعت فيها الجاهلية الأولى، وحتى لا تكون أدنى مشابهة بهم.

٨- أمور متفرقة لا يجوز فيها مشابهة الكافرين.

أ-الشفاعة في الحدود الشرعية:

عن عائشة –رضي الله عنها- في شأن المخزومية التي سرقت لَّما كلم أسامة فيها رسول الله ﷺ قال: «**يا أسامة أتشفع في حد من حدود الله؟! إنما هلك بنو إسرائيل أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سر فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، والذي نفسي بيده، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**»[متفق عليه].

ب- النهي عن رفع القبور مشابهة بأهل الكتاب:

عن معاوية رضي الله عنه قال: «إن تسوية القبور من السنة . وقد رفعت اليهود والنصارى، فلا تشبهوا بهم» [رواه ابن أبي عاصم ورجاله ثقات] ويشير معاوية رضي الله عنه إلى حديث علي رضي لله عنه قال: أمرني النبي ﷺ: «**أن لا أدع قبراً مشرفا إلا سويته ولا تمثالا إلا طمسته**» [رواه مسلم].

ج- عدم مؤاكلة المرأة ومعاملتها إذا كانت على حيض:

عن أنس رضي الله عنه أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم . لم يؤاكلوها و لم يجامعوها [1] في البيوت . فسأل أصحاب النبي ﷺ النبي ﷺ فأنزل الله عز وجل ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ**﴾[البقرة:٢٢٢]. فقال رسول الله ﷺ «**اصنعوا كل شيء إلا النكاح**» فبلغ ذلك اليهود فقالوا: ما

---

(١) أي يجتمعوا مع المرأة الحائض في بيت واحد بل كانت تترك المرأة حتى تنتهي من حيضها.

يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئا إلا خالفنا فيه، فجاء أسيد بن حضير، وعباد بن بشر، فقالا يا رسول الله : إن اليهود تقول كذا وكذا أفلا نجامعهن؟ فتغير وجه رسول الله ﷺ حتى ظننا أن قد وجد عليهما فخرجا فاستقبلهما هدية من لبن إلى النبي ﷺ فأرسل في آثارهما. فسقاهما، فعرفنا أنه لم يجد عليهما [رواه مسلم].

قال شيخ الإسلام: (فهذا الحديث يدل على كثرة ما شرعه الله لنبيه من مخالفة اليهود، بل خالفهم في عامة أمورهم، حتى قالوا: ما يريد أن يدع من أمرنا شيئا إلا خالفنا فيه) أهـ [(١)] .

د- النهي عن الشح؛ لأنه كان سببا في هلاك من مضى:

عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «**اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم وحملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم** » [رواه مسلم].

وفي الحديث النهي عن مشابهتهم حتى لا نقع في الهلاك كما وقعوا . فهذه جملة من الأمور التعبدية وغير التعبدية التي وردت النصوص الصريحة بتحريم مشابهة الكافرين بها، بل أيها الأخ الحبيب، لو علمت أن النبي ﷺ نهى عن مشابهة الكافرين حتى بالإشارة بالأصابع وباليد في السلام، فكيف تصنع بغيرها من الأمور التي تقدمت معنا؟ فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليس منا من تشبه بغيرنا لا تشبهوا باليهود ولا بالنصارى فإن تسليم اليهود إشارة بالأصابع**

(١) إقتضاء الصراط (/١٩١).

وتسليم النصارى إشارة بالأكف» [حديث حسن. رواه الترمذي (انظر صحيح الجامع)].

تنبيه مهم:

أيها الأخ المسلم ... أيتها الأخت المسلمة:

يجب علينا جميعا أن نعلم مشابهة الكافرين لِمَ تحرم في الشرع إلا لحكمة عظيمة، وهي حقيقة موجودة مهما حاول بعضهم على إنكارها، وهذه الحقيقة هي أن المشاركة في الهدي الظاهر تورث تناسباً وتشاكلاً بين المتشابهين يقود إلى موافقة ما في الأخلاق والأعمال، وهذا أمر محسوس، فإن اللابس ثياب أهل العلم يجد من نفسه قد انضم إليهم واللابس لثياب الجند المقاتلة – مثلا- يجد من نفسه قد تخلق بأخلاقهم [(١)] فتبين بهذا أنه لا يمكن أن يقلد الإنسان آخر إلا لما يجد في خلد نفسه من محبة ومودة للمقلد ... وهذه قضية خطيرة جداً، فإنها توجب لذلك موالاة الكافرين ومودهم ومحبتهم . والله عز وجل يقول: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾[المائدة:٥١].

وقال أيضاً: ﴿**لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ باللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آَبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ...**﴾[المجادلة:٢٢].

فإني أذكر كل مسلم ومسلمة اغتر بعادات الغرب الكافر أو بأخلاقهم الفاسدة، فأراد بعد ذلك أن يقلدهم أو يدعو الناس إلى

(١) من كلام شيخ الإسلام (إقتضاء ١/٨١ تحقيق العقل).

تقليدهم أو أعجب بهم بالآتي:

١- يجب عليك أن تعلم أنك مسلم، وأن الواجب عليك أن تعيش استقلالية إسلامية بمبادئ الإسلام وعاداته وتقاليده، بل يجب أن تعتز بذلك وتدعو الناس إلى ذلك ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ**(●)﴾

٢- يجب عليك أن تعلم أن المسلمين بحاجة ماسة إلى هويتك الإسلامية، وهم يعتزون بك أخا لهم، يكثرون بك سوادهم.

٣- أن الغرب الذين يقلدون هم يبغضونك ويحتقرونك بهذا التقليد والتبعية.

٤- **وأخيرا**..إن الذين تقلدهم من اليهود والنصارى والمجوس وعباد الأصنام والأبقار هم الذين يذبحون المسلمين اليوم، وهم الذين يشردون الأطفال كل يوم، فكم تيتم طفل وكم ترملت امرأة من بعدهم، وكم دنس المسجد الأقصى من دنسهم، قاتلهم الله.

أخي المسلم..

إن الذين يقلدون اليوم هم مجرمو الأمس فلا تنسَ أن اليهود هم الذين حاولوا قتل رسول الله ﷺ وهم الذين وضعوا له السم في ذراع الشاة وهم الذين سحروه ﷺ وناصبوه العداء إلى آخر حياته.

أخي المسلم.. هلا غيرة على أعراض المسلمات ورحمة ببكاء

(●)بل إني أذكرك هل رأيت كافرا يلبس عمامة، أو ثوبا كالمسلمين، بل من مكابرتهم وهم يعلمون الفوائد العظيمة في السواك!! هل رأيت كافراً يستاك بعود الأراك؟ لن يفعلوا ذلك لأن من شعار المسلمين بل وضعوا مادة السواك في معجون الأسنان وباعوه للمسلمين. حتى يخرجوا من مشابهتنا والله المستعان.

اليتامى، ورثاء لنداءات الثكالى – تركت مشابهة هؤلاء الكافرين؟ وهلا غيرة على دينك وعقيدتك وإسلامك وإيمانك الذي يحاول فيه الأعداء صباح مساء على إبادته وتغيير معالمه، هلا غيرة على كل ذلك تعيش مسلماً معتزاً بالعقيدة، رافعاً لواء الإيمان، بعيداً عن كل مشابهة لهؤلاء الكافرين، بعيداً عن كل موالاة أو مودة أو محبة لهم قربة إلى الله عز وجل .

أخي المسلم:

بعد هذا كله، هل ترتضي أن تساهم في مآسي المسلمين، وتزيد من آلامهم بموالاتك للكافرين، ومؤازرتك لهم وتشبهك بهم وإعجابك بهم؟ لا أظنك ممن يفعل ذلك ولا أخالك ترتضي بذلك وحاشاك ممن يفعله.

خطبة الرسول صلى الله عليه وسلم
في حجة الوداع : فوائد وأحكام.

عجبا لأمر المسلمين اليوم كيف تمر بهم الأحداث والوقائع دون النظر والاستفادة منها! وقد تمر بهم الأيام وتمضي السنون دون فهم ثاقب للخروج من المأزق!! فمنذ بعثته عليه الصلاة والسلام إلى وفاته والآيات والأحاديث ترشد الأمة إلى الخير وتعمق فيهم الصلاح، وتحذرهم من الوقوع في الشروع والإجرام، وذلك لمن استرشد بها وعمل بمقتضاها، ولهذا يقول ﷺ «**تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ إلا هالك**».

إن الناظر إلى نصوص الكتاب والسنة النبوية الصحيحة ليعلم يقينا أن الخلاص والنجاة من كل ما نحن فيه هو العودة إليهما والتمسك بهما. ولذلك أصل النبي ﷺ هذه المبادئ وبنى عليها الأسس في حجة الوداع بخطبة جامعة مانعة سميت خطبة الوداع، جعلها وصايا عامة تسترشد بها الأمة وتستضيء بها في حياتها، أمام الظلام الحالك الذي نعيشه من صهيونية حاقدة، ونصرانية خبيثة، وعلمانية ماكرة، دست بين صفوف المسلمين بأوجه عديدة، حتى أضحت تلهج على الألسنة: فمرة بالديمقراطية ومرة بالتطور والحضارة، ومرة بنبذ التنطع والتشدد –زعموا– وأخيراً بمحاربة الإرهاب.

وقبل أن نورد الأحكام والفوائد من هذه الخطبة، نقف متأملين في الأفق ننظر بأعيننا ونسمع بآذاننا، ونفقة بقلوبنا نص هذه الخطبة العظيمة.

عن أبي بكرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**الزمـــان قـــد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض. السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم، ثلاث متواليات: ذو القعدة وذو الحجـــة والمحرم. ورجب مضر الذي بين جمادي وشعبان . أي شهر هذا؟** قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمـــه قال: **أليس البلدة؟** وفي بعض الروايات: **أليس البلد الحرام؟** قلنـــا بلى . قال: **فأي يوم هذا؟** قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حـــتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه . قال: **أليس يوم النحر؟** قلنا : بلى قال: **فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا**[1] .ثم قال : **ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع ودماء الجاهلية موضوعة، وأن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث كان مسترضعا في بني سعد هذيل. وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضعه ربانا ربا عباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كلـــه .فـــاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمان الله واستحللتم فروجهن بكلمـــة الله، ولكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه، فإن فعلـــن ذلك فاضربوهن ضربا غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوهن بالمعروف، وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به:**

---

(١) إلى هذه الجملة فهي رواية البخاري من حديث أبي بكرة، وقد أورده البخاري في عدة أبواب فذكره في باب اللم والحج والمغازي والتفسير والأضاحي والفتن والتوحيد بأرقام عدة وهي (٦٧ – ١٠٥ – ١٧٣٩ – ١٧٤١ – ١٧٤٢ – ٣١٩٧ – ٤٤٠٦ – ٤٦٦٢ – ٥٥٥٠ – ٧٠٧٨ – ٧٤٤٧) .

كتاب الله . وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت. فقال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: **اللهم أشهد، اللهم أشهد ثلاث مرات**» [هذه لفظ مسلم برقم ٢٩٤١] وفي رواية البخاري [حديث رقم (١٧٤١) فتح الباري : ٥٧٤/٣] بلفظ : «**ألا هل بلغت؟**» قالوا: نعم . قال: «**اللهم أشهد. فليبلغ الشاهد الغائب فرب مبلغ أوعى من سامع، فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض**» وفي رواية للبخاري أيضا [حديث رقم (٤٤٠٦) فتح الباري: ١٠٨/٨] . «**فلا ترجعوا بعدي ضلالا**... » وعند ابن ماجة [من حديث عمرو بن الأحوص، انظر صحيح ابن ماجة للألباني رقم (٢٤٧٩ -٣٠٥٥) باب الخطبة يوم النحر رواه الترمذي أيضا وقال حديث حسن صحيح] بعد قوله :«... **فإن دماءكم وأموالكم**.. » قال: «**ألا لا يجني جان إلا على نفسه، ولا يجني والد على ولده، ولا مولود على والده . ألا إن الشيطان قد أيس أن يعبد في بلدكم هذا أبداً، ولكن سيكون له طاعة في بعض ما تحتقرون من أعمالكم، فيرضى بها**» ثم قال : «**ألا وكل دم من دماء الجاهلية** ... » مثل رواية مسلم.

وعند ابن ماجة [صحيح ابن ماجة (٢٤٨٠-٣٠٥٦)] أيضا من حديث جبير قال : قام رسول الله ﷺ بالخيف من مني فقال: «**نضَّر الله امرأً سمع مقالتي فبلغها فرب حامل فقه غير فقيه! ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه!! ثلاث لا يغل عليهن قلب مؤمن : إخلاص العمل لله، والنصيحة لولاة المسلمين ولزوم جماعتهم،**

فإن دعوهم تحيط من ورائهم»وعنده [صحيح ابن ماجة (٢٤٨١-٣٠٥٧) رواه أحمد في المسند] أيضا : «**ألا وأني فـرطكم علـى الحوض وأكاثر بكم الأمم . فلا تسودوا وجهي. ألا وإني مستنقذ أناساً، ومستنقذ مني أناس فأقول : يا رب ! أصحابي فيقول: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك**» وعند الإمام أحمد[١] :

«... **اعبدوا ربكم وصلوا خمسكم وصوموا شهركم وحجوا بيتكم، وأدوا زكاتكم طيبة بها أنفسكم تدخلوا جنة ربكم**» وعند البخاري [٢] من رواية ابن عمر رضي الله عنهما : «ثم ذكر المسيح الدجال فأطنب في ذكره، وقال : «**ما بعث الله من نبي إلا أنـذر أمته أنذره نوح والنبيون من بعده وأنه يخرج فيكم فمـا خفـي عليكم من شأنه، فليس يخفى عليكم أن ربكم ليس على ما يخفى عليكم ثلاثا. إن ربكم ليس بأعور وإنه أعور عين اليمن، كـأن عينيه عنبة طافية**»[٣] .

إن هذه الخطبة الشاملة الجامعة المانعة حوت في طياها الأسس والمبادئ العامة لبناء الدولة الإسلامية، وتحقيق مبدأ العدالة العامـة

(١) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه ورواه الترمذي وإسناده صحيح وصححه ابن حبان والحاكم ووافقه الذهبي (٥٨/٣) زاد المعاد.

(٢) حديث رقم (٤٤٠٢) انظر فتح الباري (١٠٦/٨) وهي الرواية الوحيدة التي تذكر الدجال وتحذر منه، وقد روى جمع من الصحابة هذه الخطبة ولم يذكرها أحد سوى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وقال الحافظ وزيادة عمر بن محمد (رواية) صحيحه لأنه ثقة، وكأنه حفظ غيره.

(٣) هذا هو النص الكامل – تقريبا- على حسب ما وقفت عليه من خطبته ﷺ سواء في عرفة أو يوم النحر أو في أيام التشريق . الله أعلم.

لبناء الدولة الإسلامية، وتحقيق مبدأ العدالة، وتثبت حقوق الإنسان، وذلك تحت مظلة الشريعة السمحة حتى تبني بذلك أجيالاً ومجتمعات تقوم على أساس متين، وقوة وصلابة لا تتزعزع أمام المغريات والنظم والقوانين الموضوعة من زبالات الأذهان والتي ربما خطتها أيادي مدنسة وملطخة بالخزي والعار!!

ابتدأ النبي ﷺ خطبته العصماء بقوله: «**الزمان استدار...**»وذلك لكي يبين عظمة الله سبحانه وتعالى في خلق السماوات والأراضين، وأن الأيام والسنين كلها تمضي وتسري على وفق ما أراد لها خالقها، وأنها لا تتغير ولا تتبدل، تسير متعبدة لخالقها وبارئها سبحانه وتعالى، ثم بين "أن السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم . ثلاثة متواليات وهي: ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب منفرد عنهم بين جمادي وشعبان. وأكد على الثلاث المتواليات، إشارة منه ﷺ إلى إبطال ما كانوا يفعلونه في الجاهلية من تأخير بعض الأشهر الحرم. فقيل : كانوا يؤخرون شهر محرم إلى صفر . فيجعلونه من الأشهر الحرم، لئلا تتوالى عليهم ثلاثة أشهر فيحرم عليهم فيها القتال"[فتح الباري(٣٢٥/٨)] ولذلك ذم الله سبحانه وتعالى أفعالهم هذه فقال: ﴿**إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا** ...﴾[التوبة:٣٧] والنسيء: هو تأخير حرمة الشهر الحرام إلى شهر أخر.

وبعد أن قرر النبي ﷺ هذه الحقائق المعروفة عندهم بدأ يقررهم بحقائق أخرى، حتى يصل إلى مراده ومقصوده من هذه المقدمة في خطبته . وهذا يدل على كمال براعة الاستهلاك عنده ﷺ فقال

لهم: «**أتدرون أي شهر هذا؟ أتدرون أي بلد هذا؟**...» فلما أقروا بحرمة ما تقدم قال لهم : « **فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام**... » وفي هذه المقدمة والجمل من الفوائد الشيء الكثير نقتطف منها:

١- قال القرطبي: سؤاله ﷺ عن الثلاثة وسكوته بعد كل سؤال منها كان لاستحضار فهو مهم، وليقبلوا عليه بكليتهم، وليستشعروا عظمة ما يخبرهم به . ولذلك قال بعدها : فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، مبالغة في بيان تحريم هذه الأشياء [فتح الباري [٢٥٩/١].

وقد تضافرت نصوص الكتاب والسنة على المبالغة في عقوبة هذه الثلاث ووضع الحدود والقصاص بحقها، فلا يخفي على المسلم حد القتل والسرقة والقذف، وتفاصيلها ليست هنا ولكنها تطلب في كتب الحديث والفقه مع أدلتها.

٢- فيه حسن أدب وأخلاق الصحابة رضوان الله عليهم، حيث سألهم: أي شهر هذا؟ أي بلد هذا؟ ...إلخ، فكانوا يقولون في الجميع : الله ورسوله أعلم. مع أنهم قد علموا في السؤال الأول أن الإجابة هي على حسب ما يعرفونه وليس فيه شيء جديد.

فليت شعري لو تأدب طلاب العلم اليوم حال الطلب والتحصيل من العلماء كتأدب الصحابة رضي الله عنهم حتى ينالوا ما نالوه.

٣- مناط التشبيه في قوله : «**كحرمة يومكم**» وما بعده هو ظهوره للسامعين، لأن تحريم الشهر والبلد واليوم كان ثابتا عندهم

بخلاف الأنفس والأموال والأعراض، فكانوا في الجاهلية يستبيحونها فشدد الشرع عليهم ذلك محرماً دم المسلم وماله وعرضه أعظم من تحريم البلد والشهر واليوم . فلا يرد كون المشبه به أخفض رتبة من المشبه، لأن الخطاب إنما وقع بالنسبة لما اعتاده المخاطبون قبل تقرير الشرع[١] .

٤-قال النووي رحمه الله : «**فإن دماءكم...** » معناه: أن تحريم هذه الأمور متأكدة شديدة. وفي هذا دليل لضرب الأمثال وإلحاق النظير بالنظير قياسا[٢] .

٥- الاستعداد الكامل عند الصحابة رضوان الله عليهم، لأي تغيير يحدث — ولو كان في المسلمات عندهم — إذا كان هذا التغيير يأتي من الشارع، وذلك عندما سكتوا بعد سؤاله : أي يوم هذه؟ أي شهر هذا؟ وقالوا: (حتى ظننا أنه سيسميه بغير أسمه) ومعناه: فلو سماه بغير اسمه سمينا كذالك . وفي هذا رد واضح لمن يتدخل في نصوص الكتاب والسنة بعقله القاصر وفكره الناقص، وزعما يقدمه على النص.

٦- في قوله : « **فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم** » فيه تقديم الدماء، يعني الأنفس على المال والعرض، ولا يخفي، ما فيه من فائدة . إذ أن النفس أعز ما يملكه الإنسان.

٧- ذكر الأنفس والأموال والأعراض، إشارة إلى الكليات الخمس التي طالما دعت الشريعة إلى المحافظة عليها . والكليات

---

(١) فتح الباري (٢٥٩/١).

(٢) شرح مسلم (٤١٢/٨) في حديث رقم (٢٩٤١).

الخمس هي : الدين والعقل والنفس والمال والعرض، ولذلك حرم الله عز وجل : الردة والخمر والقتل والسرقة والقذف مقابلها.

ثم انتقل ﷺ من خطابه النظري إلى الخطاب التطبيقي العملي، حتى يكون أكثر فائدة ووقعا في نفوس السامعين، فقال «**ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع**...» إلى أن قال: «**وأول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة**...» وقال : «**وأول ربا أضع ربانا ربا عباس بن عبد المطلب**...إلخ» وفي هذه الجمل من الأحكام والتأصيلات ما يلي:

١- تحقير أمر الجاهلية إلى أدنى درجة من الحقارة بقوله : «**تحت قدمي موضوع**».

٢-في قوله : «**ألا كل شيء**...» أي كل شيء كان في الجاهلية باطلاً، وإلا فهناك أشياء وأمور وأخلاق كانت في الجاهلية حسنة وأقرها الإسلام، وذلك كنصرة المظلوم ولزوم الصدق والأمانة والجود والكرم...إلخ والله أعلم.

٣- الاعتزاز بتعاليم الإسلام الجديدة وترك ونبذ التعاليم الجاهلية.

٤- بيان أن الدماء التي سالت في الجاهلية موضوعة، أي لا قصاص فيها ولا دية، وذلك لأن النبي ﷺ يقول : «**الإسلام يجب ما كان قبله**»[1] .

٥- في قوله : «**وأول دم أضع... وأول ربا أضع**...» فيه

(١) رواه بهذا اللفظ ابن سعيد عن جبير بن مطعم، انظر صحيح الجامع برقم (٢٧٧٧) وأصله في مسلم.

إشارة إلى أن الدعاة والعلماء عليهم أن يبدؤوا وبأنفسهم في تطبيق أحكام الشريعة حتى يجدوا قبولاً بعد ذلك عند السامعين والنصوص في تأييد ما ذكر كثيرة.

٦- أول دم يضعه النبي ﷺ هو دم ابن ربيعة واسمه (إياس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب) وكان طفلاً صغيرا يحبو بين البيوت، فأصابه حجر في حرب كانت بين بني سعد وبني ليث بن بكر فمات(١) .

٧- وأول ربا وضعه النبي ﷺ هو ربا العباس بن عبد المطلب، كان يتعامل به في الجاهلية قبل الإسلام.

٨- وفي قوله :«**موضوع كله**» أي: الربا، وهي الزيادة على أصل رأس المال. كما قال تعالى : ﴿**وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ**﴾[البقرة:٢٧٩].

٩- فيه التشنيع على هذه الجريمة العظيمة، ويكفي فيها قوله تعالى: ﴿**فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ...**﴾[البقرة:٢٧٩]، وقد جاءت الأحاديث الكثيرة على تحريم الربا، ومن أشدها قوله ﷺ : «**الربا اثنان وسبعون بابا، أدناها** (أي عقوبة) **مثل إتيان الرجل أمه. وأن أربى الربا استطالة الرجل في عرض أخيه**»(٢) . وقال ﷺ أيضا : «**درهم ربا يأكله**

---

(١) شرح مسلم للنووي (٤١٢/٨) الطبعة الخامسة دار المعرفة.

(٢) رواه الطبراني في الأوسط من حديث البراء بن عازب، وهو صحيح. انظر صحيح الجامع برقم (٣٥٣٧).

الرجل وهو يعلم أشد عند الله من ستة وثلاثين زنية»[(١)] وجريمة الربا تدمير للاقتصاد وخراب للدول ومحق للبركة، وفساد للأخلاق والمعاملات، ولذلك قال تعالى : ﴿**يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ**﴾[البقرة:٢٧٦].

ثم انتقل ﷺ نقلة أخرى في خطبته يبين فيها أمراً قد كان مسحوقاً في الجاهلية، وهو قضية المرأة التي طالما سمعت أبواق العلمانيين والمفسدين تهتف بمطالبة حقوقها الضائعة المفقودة — زعموا– ولطالما جعلوا هذه الحقوق ستاراً لنوايا خبيثة وسرائر سيئة، لإفساد المرأة وإخراجها من مملكتها وإنزالها من عرشها (بيتها) إلى أماكن الهلاك وبؤر الفساد . فبدأ ﷺ بقوله : «**فاتقوا الله في النساء**...إلخ». وفي هذه الجمل من الفوائد والأحكام ما يلي:

١– ابتداء انتقاله ﷺ إلى موضوع المرأة بقوله : «**فاتقوا الله**...» فيه إشارة واضحة إلى ما كان عليه الجاهليون من إضاعة حقوقها.

٢– فيه الحث على مراعاة حق النساء والوصية بهن، ومعاشرتهن بالمعروف . وقد قال تعالى: ﴿**وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ**﴾[النساء:١٩] وقال أيضا: ﴿**وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ**﴾[البقرة:٢٢٨] وقال ﷺ: «**استوصوا بالنساء خيراً**» [متفق عليه من حديث أبي هريرة] وقال

---

(١) رواه أحمد والطبراني في الكبير من حديث عبد الله بن حنظلة وهو في صحيح الجامع برقم (٣٣٧٥).

أيضا «**الدنيا متاع وخير ومتاعها المرأة الصالحة**» [رواه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص] وقال : «**أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخياركم خياركم لنسائهم**» [رواه الترمذي وابن حبان عن أبي هريرة وهو في صحيح الجامع) وهناك نصوص كثيرة في الكتاب والسنة الصحيحة تبين أهمية حسن معاشرة النساء ومراعاة حقوقهن.

٣- في قول: «**فإنكم أخذتموهن بأمان الله**» في بعض الروايات [رواه الترمذي وقال حسن صحيح] : «**إنما هن عوان عندكم**» أي: أسيرات، وشبههن بذلك لدخولهن تحت حكم الزوج.

٤-قوله : «**واستحللهم فروجهن بكلمة الله**» قال النووي: (المراد بكلمة الله قيل: معناه قوله تعالى: ﴿**فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ**﴾[البقرة:٢٢٩] وقيل : المراد كلمة التوحيد، إذ لا تحل مسلمة لغير مسلم. وقيل المراد بإباحة الله والكلمة قوله: ﴿**فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ**﴾[النساء:٣]، وهذا الثالث هو الصحيح). اهـ كلامه(١).

٥-قوله : «ولكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه»قال النووي (٢) : (المختار أن معناه أن لا يأذن لأحد تكرهونه في دخول بيوتكم والجلوس في منازلكم سواء كان رجلاً أجنبيا أو امرأة أو أحداً من محارم الزوجة، فالنهي يتناول جميع ذلك).اهـ.

---

(١) شرح مسلم:٨/٤١٣.

(٢) المرجع السابق ، الموضع نفسه.

٦-قوله:«فإن فعلن ذلك» أي المخالفة «فاضربوهن ضرباً غير مبرح»، فيه بيان عظمة هذه الشريعة وسماحتها، حيث إنها جعلت الأمور كلها بميزان عدل وبحساب دقيق، فتؤخذ الأمور أولا بالرفق واللين والموعظة الحسنة، فإن لم تنفع فبالمناسب وإلا فإن آخر الدواء الكي، ولذلك قال تعالى في قضية نشوز المرأة : ﴿**وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا**﴾[النساء:٣٤] ومع ذلك فلا يلجأ الزوج إلى الضرب إلا في الأخير، وإن لجأ إليه فلا يكون ضربا مبرحاً (أي شديدا تاماً)وإنما يكون ضرب تأديب . وفي كراهية الضرب يقول ﷺ: «يعمد أحدكم فيجلد امرأته جلد العبد ولعله يضاجعها في آخر يومه» [متفق عليه من حديث عبد الله بن زمعة رضي الله عنه] وقال أيضا : «ولقد أطاف بآل بيت محمد سبعون امرأة يشكون أزواجهم (أي بالضرب) ليس أولئك بخياركم»[1] .

٧-قوله : «ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف» فيه وجوب النفقة والكسوة على الزوج وهو ثابت بالإجماع . وهناك تفاصيل في المطولات على مقدار النفقة والكسوة وكذا السكنى.

ومع أن الخطاب هنا موجه إلى أفضل الخلائق بعد الأنبياء والمرسلين وهم الصحابة وقد كانت نفوسهم كلها مستلهمة تعاليم ربها من سيد الأنبياء والمرسلين، مع ذلك كله تأتي التأكيدات على التمسك بهذا الدين القويم، والكتاب المنير، الذي لا يأتيه بالباطل من

---

(١) رواه ابن ماجة في السنن، انظر صحيح ابن ماجة للألباني حديث رقم (١٦١٥) (١٩٨٥) وقال صحيح.

بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، فيقول ﷺ «**وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله**».

وهذه من أعظم الوصايا التي يجب علينا أن نتمسك بها، فإنه والله ما أصاب الأمة من وهن وضعف إلا ببعدها عن تعاليم ربها، وما تكالب عليها أعداؤها وكشروا عن أنيابهم، إلا عندما تخاذل المسلمون عن دينهم، وما أصاب الأمة من نكبات وضربات وخسائر وتقتيل وذبح وانتهاك للأعراض وتشريد وتخويف وذل وعار وخزي إلا بسبب غفلتهم عن تعاليم السماء وتركهم الجهاد في سبيل الله، ولذلك يقول ﷺ : «**إذا ضن** (١) **الناس بالدينار والدرهم، وتبايعوا بالعينة** (٢) وتبعوا أذناب البقر، وتركوا الجهاد في سبيل الله، أدخل الله تعالى عليهم ذلا لا يرفعه عنهم، حتى يراجعوا دينهم » [رواه أحمد والطبراني وهو في صحيح الجامع من حديث ابن عمر].

وفي الأخير أشهدهم ﷺ على تبليغ دين الله وأدائه رسالة السماء، فقال: «اللهم أشهد، اللهم أشهد ثلاثاً»، وفي هذه الجمل الأخيرة فوائد منها:

١-في قوله «فما أنتم قائلون؟» فيه حرصه الشديد ﷺ على إشهاد الأمة على تبليغ رسالته، وذلك لأنه الواجب على المرسلين، قال تعالى : ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ**

---

(١) أي بخلوا بالصدقة والإنفاق.

(٢) بيع العينة: وهو أن يبيع من رجل سلعة بثمن معلوم إلى أجل مسمى، ثم يشتريها بأقل من الثمن الذي باعها به (النهاية).

تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾[المائـدة:٦٧].
فلما شهدوا له بذلك أشهد ربه على ذلك ثلاثاً.

٢-حسن الأدب في إجابة الصحابة رضي الله عنهم، فعندما طلب منهم الشهادة لم يكتفوا بها فقط، ولكن قالوا : «بلغت وأديت ونصحت»فأضافوا صفات أخرى كذلك . فما أجمل هذه الشهادة الكاملة منهم رضوان الله عليهم أجمعين . ثم انظر الفرق بين الاستفهامين منه ﷺ في بداية الخطبة ونهايتها . ففي البداية عندما سألهم : أي شهر هذا؟ أي بلد هذا؟ كانت الإجابة : الله ورسوله أعلم وذلك لكي يستفيدوا المزيد من العلوم الشرعية، ولكن لما كان السؤال في الأخير:«وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون؟»متعلقاً بأمانته ﷺ فبادروا بالإجابة فوراً بقولهم : «بلغت وأديت ونصحت» وهذه فيه كمال الأدب منهم رضوان الله عليهم.

٣-إشارته بالسبابة إلى السماء فيه إثبات الفوقية لله تعالى وهذه المسألة أجمع عليها أهل السنة والجماعة وكافة العقلاء، بثبوتها نقلاً وعقلاً، وليس المقام مقام بسط.

٤-عندما أشار إلى السماء، ثم إلى الأرض ثلاثاً فيه زيادة التأكيد على الإشهاد.

٥-بعد أن بين ﷺ لأمته حرصه الشديد على تبليغ الرسالة وأداء الأمانة حثهم على ذلك، فقال: «فليبلغ الشاهد الغائب»وفيه وجوب التبليغ. وقد قال ﷺ: «بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج»[رواه البخاري عن عبد الله بن عمرو بن

العاص].

٦-قوله: «فرب مبلغ أوعى من سامع» قال الحافظ: (فيه الحث على تبليغ العلم وجواز التحمل قبل كمال الأهلية، وأن الفهم ليس شرطاً في الأداء، وأنه قد يأتي في الآخر من يكون أفهم ممن تقدمه لكن بقلة).

٧-في قوله: «فلا ترجعوا بعدي كفاراً» وفي رواية «ضلالاً» فيه إرشاد للأمة وتحذير من أن يقعوا في هذه الجريمة الكبيرة، وهي قتل النفس المؤمنة بغير حق، فإن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿**وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا**﴾[النساء:٩٣]، وقال عليه الصلاة والسلام :«**لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم**» [رواه الترمذي والنسائي عن ابن عمر وهو في صحيح الجامع] ولذا عبر بلفظ «**لا ترجعوا بعدي كفارا**». وقد ذكر الحافظ -رحمه الله- في تفسير هذه اللفظة عشرة معان . أقواها: أنه أطلق عليه، مبالغة في التحذير من ذلك لينزجر السامع عن الإقدام عليه، أو أنه على سبيل التشبيه، لأن ذلك فعل الكافر أو إن فعل ذلك استحلالا فهو كافر إلى غير ذلك في التأويلات، لأن مذهب أهل السنة والجماعة -كما هو معلوم- عدم التكفير بالكبيرة خلافا للخوارج والقتل من الكبائر.

هذا هو النص الذي ورد عند الشيخين كما تقدم تفصيله وتخريجه، وهناك روايات أخرى كذلك في غير الصحيحين نذكرها شرحاً على سبيل الإيجاز . فمنها: رواية ابن ماجة، وفيه: «**ألا لا**

يجني جان إلا على نفسه» وفيه تأسيس قاعدة عظيمة في الشريعة الإسلامية وهي : لا يؤاخذ المرء بجريرة الآخر . ولذلك يقول الله تعالى: ﴿**وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى**﴾ويقول أيضا: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ**﴾ [المدثر:٣٨].

وفي قوله: «ألا إن الشيطان قد أيس أن يعبد في بلدكم هذا» مثله قوله ﷺ في رواية مسلم: «إلا إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون ولكن في التحريش بينهم». وفي رواية الباب: «ولكن سيكون له طاعة..إلخ»فيه تحذير من إتباع خطوات الشيطان وقد قال تعالى: ﴿**وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ**﴾[البقرة:١٦٨] ورواية جبير بن مطعم عند ابن ماجة فيه التأكيد على أمور مهمة جدا لهذه الأمة وهي:

١-إخلاص العمل لله: ومعلوم أن الأعمال محجوبة عن القبول إلا بشروط ثلاثة : الإسلام والإخلاص والمتابعة.

٢-النصيحة لولاة المسلمين لما فيها المصلحة العامة للبلاد والعباد وحتى لا تهلك الأمة بسبب عدم إنكار المنكر، وتكون ملعونة كما لعنت بنو إسرائيل قبلها . قال تعالى: ﴿**لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ**﴾[المائدة: ٧٨-٧٩].

٣-لزوم جماعة المسلمين : لأن المفارق لهم يشق العصا بين المسلمين ويفرق كلمتهم ويشتت جهودهم، وينخر في الصف، ويثير الفتن والنزاعات بين المسلمين . ولذلك كانت عقوبته القتل.

قال ﷺ: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث، وذكر منهم: والتارك لدينه المفارق للجماعة»[المتفق عليه من حديث ابن مسعود].

ثم أخذهم ﷺ في جولة أخرى خارجة عما كان عليه من قبل ولكنها تقربهم إلى النتائج والى الغاية والنهاية من هذا المطاف كله، وهي غاية المؤمنين من وجودهم في هذا الدنيا، وهي الجنة والمثوبة الأخروية والحوض والكوثر والحور العين . قال ﷺ : «ألا وأني فرطكم في الحوض» أي أتقدمكم يوم القيامة إلى الحوض حتى أهيئ لكم الدلاء والكيزان لكي تشربوا منه وأكاثر بكم الأمم «لا تسودوا وجهي»أي بأن ترتكبوا من المعاصي والآثام ما يبعدكم عن الحوض ويحرمكم من الشرب منه.

وفي رواية أحمد: «اعبدوا ربكم وصلوا خمسكم...إلخ» ففيه الوصايا الكاملة لأركان الإسلام وأعمدته وقوامه، التي طالما عاشها ﷺ مع أصحابه يؤدونها في حياته، فحذرهم من تركها وأمرهم بالتزامها . ومعلوم أهمية القيام بأركان الإسلام .

وأما رواية ابن عمر عند البخاري : «ثم ذكر المسيح الدجال..» فمعلوم أن النبي ﷺ كان يحذر من الدجال دائما وأبداً، بل ما من نبي إلا وحذر أمته من الدجال من لدن نوح إلى محمد ﷺ، وأحاديث الدجال وما يتعلق بصفاته وفتنة كثيرة معروفة، قد أفردت بالمؤلفات نعوذ بالله من شره.

وللفائدة نذكر حديثا واحداً فقط للاتقاء من شره، فعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «من حفظ عشر

آيات من أول سورة الكهف عصم من فتنة الدجال»[رواه مسلم].

هذه بعض من الفوائد والتنبيهات، التي تضمنتها هذه الخطبة الجليلة، واختم مقالتي هذه بخمس فوائد منتقاة حول الحجة التي حصلت فيها هذه الخطبة وهي (حجة الوداع).

١- ما حج النبي ﷺ بعد الهجرة إلا حجة واحدة في السنة العاشرة، وهي حجة الوداع، وأما قبل الهجرة، فقد حج حججا كثيرة، ولذلك يقول الحافظ (١) : بل الذي لا أرتاب فيه أنه لم يترك الحج وهو بمكة قط، لأن قريشا في الجاهلية لم يكونوا يتركون الحج. فإذا كان هذا حال قريش، فكيف يظن النبي ﷺ أنه يتركه.اهـ كلامه مختصراً.

٢-لماذا سميت حجة الوداع؟ قال ابن عمر: (كنا نتحدث بحجة الوداع والنبي ﷺ بين أظهرنا ولا ندري ما حجة الوداع) [رواه البخاري رقم (٤٤٢)] وعنده أيضا من رواية ابن عمر (كتاب الحج) قال: (فودع الناس فقالوا: هذه حجة الوداع)(٢) .

٣-حج مع النبي ﷺ في هذه الحجة مائة وأربعة وعشرون ألف نفس وقيل مائة وأربعة وأربعون ألفا (٣) .

٤-من المعجزات التي حصلت: أن الخطبة سمعها جميع من كان في الحج، من دون مكبر صوت: فعن عبد الرحمن بن معاذ التميمي قال: (خطبنا رسول الله ﷺ بمنى، ففتحت أسماعنا حتى كنا نسمع ما

(١) الفتح (١٠٧/٨).
(٢) المرجع السابق حديث رقم (١٧٤٢).
(٣) ذكره المباركفوري في الرحيق المختوم (ص٤٤٢).

يقول ونحن في منازلنا [١] .

٥- عدد الخطب التي خطبها النبي ﷺ في الحج أربع خطـــب، ولذلك استحب الشافعي رحمه الله الإتيان بها وهي كالتالي:

أ-خطبة قبل يوم التروية أي في اليوم السابع من ذي الحجة.

ب- خطبة يوم عرفة.

ج-خطبة يوم النحر.

د-خطبة في ثاني أيام التشريق.

نسال المولى عز وجل أن يجعلنا من المهتدين بهدي نبيه المقتدين بسيرته، إنه ولي ذلك والقادر عليه .

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

(١) رواه أبو داود في السنن انظر صحيح أبي داود رقم (١٧٢٤-١٩٥٧).

الفهرس

مقـــدمة ٥
الصفات الأساسية ٨
لصناعة الرجال ٨
١-العبودية المطلقة لله عز وجل ٨
٢-الصدق: ٩
٣-الجرأة بالحق: ١٠
*نماذج بطولية من جرأة الأنبياء وأتباعهم بالحق:............ ١٢
٤-الشفافية الروحية والصلة الدائمة بالله والمراقبة الحقيقية: . ١٣
٥-الشجاعة والإقدام: ١٣
٦-الفراسة: ١٤
٧-التعلم والاستفادة من الغير: ١٥
٨-الجدية في موضعها والمزاح في موضعه: ١٦
*نماذج من مزاحه صلي الله عليه وسلم: ١٦
٩-العفو عند المقدرة: ١٧
١٠- التألم والتحرق على المسلمين في أي بقاع الأرض كانوا..... ١٨

١١-التحلي بالأخلاق الحميدة الحسنة مثل:................ ١٨
تحبونهم ولا يحبونكم ٢٤
خطبة الرسول صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع : فوائد
وأحكام. ٤٣
الفهرس...٦٢

* * *